المرأة فى شعر المتنبى

بقلم حسن علوان
المدرس بالمدرسة الخديوية

(١) الشعر والتاريخ :

يرى جماعة من الأدباء ، أن يكون تراث الشاعر من الشعر ، صورة تعبر عن حياته ، وقصة تحكى تاريخه . يقرؤه الأديب فتمر على صفحات ذهنه الحوادث التى أحاطت به ، والأمانى التى كانت تعتلج فى صدره ، والمؤثرات الضاحكة أو الباكية التى لابسته . يمر به كل أولئك كما تمر أطياف القصة على سَبِيبة (١) الخيالة ، كأنك تقرأ الشاعر فيوحى إليك شعره بما هو الحق من خلقه ونفسه وحياته . فإذا انطوى الشعر على عاطفة مشبوبة ، وقلب مسته لوعة الحب ، فالشاعر فى نظرهم عاشق مدلّه ، وغزله يعبر عن الحق ، ولا ينطق عن الباطل . وإذا تحدث الشاعر عن الندى والجود ، وأفاض مزهداً فى حب المال ، مرغبا فى شراء الحمد والثناء ، فهو كريم معطاء ، لا يعلق غبار الشح بثيابه ، ولا يحوم طائف التقتير حول مائدته . وهذا رأى مقبول إلى حد غير بعيد ؛ لأن الشاعر لو عرف أن التاريخ من ورائه يرصده ، ويثبت فى صحائفه كل حركة من حركاته ، ويدون فيها ما قدمت يداه فى غدوه ورواحه ـ لنظر فى مرآته ، ونظم من صور الحياة ما يبدو له فى وجهها ، فاستوحى الحقيقة ، ونكب عن الكذب والبهتان ، واستبق لنفسه من الحياة الصاخبة الزائلة ، حياة أخرى مستقرة خالدة .

بيد أن كثيرا من الشعراء ، لم يفطنوا لعين التاريخ الساهرة ، وميزانه العدل ،

(١) السبيبة : الشقة الرقيقة . والمراد لوح الخيالة .

فانحرفوا عن جادّة الحق ، وصدروا عن غير ما يدور فى نفوسهم ، وما تنطق به حياتهم ، وانحدروا فى أودية الخيال الكاذب ، الذى لا تجمع خيوطه من لباب الحقيقة ، ولا يبنى هيكله من معدن النفس ، فجرّحهم التاريخ ، وصبغ بالزور والدعوى الكاذبة مآثرهم .

(٢) أبو العتاهية بين الشعر والتاريخ :

إن شعر أبى العتاهية ، يحدثنا عنه ، أنه كان يدعو الناس إلى تحرير أنفسهم من رقّ المال ، ويقرر أنه لا يملك منه إلا الذى ينفق فى وجوه الخير ، وأنه ليس يملك ما يحبسه منه ويضن به ، لأنه لم ينفقه فى مبرّة ، أو يجتن منه ثمرة ، ويستحث ذوى الثراء على المبادرة إلى الإنفاق فيقول :

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المال نفسَه ... تملّكه المالُ الذى هو ما لكه
ألا إنما مالى الذى أنا مُنفِق ... وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنتَ ذا مال فبادرْ به الذى ... يحقُّ ، وإلا استهلكتْه مهالكُه

هنا تثور حميّة التاريخ ، ويغيظه كذب أبى العتاهية ، فينشر على الناس له صحيفة سوداء مسطرة بالحرص والشح ، ويقول لهم : (إنه حَبس(١) فى داره سبعا وعشرين بدرة (أو أربعمائة وخمسة آلاف جنيه) لا يأكل منها ولا يشرب ولا يزكّى ، وكان دائم الحرص دائم الجمع ، شحيحا على نفسه ، لا يشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد ، وكان له خادم أسود طويل ، كأنه محراك أتُون ، يجرى عليه كل يوم رغيفين لا يشبعانه . واستشفع الخادم لدى أبى العتاهية ، بأعز أصدقائه ، لعله أن يزيده رغيفاً فأبى ، حتى أهلكه الجوع ، وكفنه فى إزار وفراش خلق) فلو ضاع سِجلّ الزمان ، وسِيرَ الرجال من يد التاريخ ، وبقى للناس دواوين الشعراء لقدّسوا أبا العتاهية ومجّدوه ، للأريحيّة والمروءة التى تنفجر من شعره ، وتتدفق من ثنايا قريضه .

(١) راجع أخبار أبى العتاهية فى الجزء الثانى من الأغانى .

(٣) تحكيم التاريخ فى الشعر :

من أجل هذا ، فإنى لا أميل إلى الإسراف فى الاعتماد على قضايا الشعر ، فى دراسة الرجال ، واستنباط أحكام منها ، تكون دستوراً للرأى ، أو رائدا للحقيقة . كما أنى لا أميل إلى أن تتنازعنا الشكوك ، وتتجاذبنا الظنون ، فيما نقرأ من شعر السالفين فيغطى سوء الظن على دَرْك ما فيه من مقاصد تهدى إلى الحق ، وتنير طريق البحث . وإنما أدعو إلى الرجوع إلى التاريخ ، واستلهام البيئة التى درج الشاعر فيها ، ومعرفة العوامل التى ألهمته ، ثم يقوم تراثه من الشعر بعد ذلك ، مقام الشاهد على ما تنطق به حوادث الزمان والمكان ، فان استبهمت صحائف التاريخ ، وعميت مسالك بيئة الشاعر ، والتبست علينا حياته فلم نستطع إلى حقيقة أمره سبيلا — استضأنا بنور العقل ، واستنجدنا بروح العصر ، فنميز زيف القول من خالصه .

وقد يكشف الشعر عن ناحية من نواحى الشاعر ، ويشف عن بعض ماطوته خفايا الأمور ، وملابسات الحياة ، فى حنايا صدره ، فلم يتجاوب فى الهواء صداه ، ولم تتناوله أقلام المؤرخين ، ولكن ذاع سرُّه فى تضاعيف السطور ، وسطعت رائحته من أكمام القصائد ، كما تلمح ذلك من بعض مطالع أبى الطيب ، فى مدح كافور ، فإنها تنم عن سخرية ، وتعريض خفى ، وإن لم يكن أحد دوّن أن المتنبى عقب اتصاله بكافور قد برم به ، أو سخر منه ؛ لأنه كان إذ ذاك موصولا منه بأمل ، ومحبا له لرجاء يحققه ، وغاية ينشدها ، كما يظهر ذلك من قوله :

أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ ... وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ ، وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ

أَمَا تَنْلَطُ الأَيَّامُ فِىَّ بِأَنْ أَرَى ... بَغِيضاً تُنَائِى ، أَوْ حَبِيباً تُقَرِّبُ ؟

وقوله :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ

وَلِلَّهِ سِرٌّ فِى عُلَاكَ ؛ وَإِنَّمَا ... كَلَامُ الْعِدَا ضَرْبٌ مِنَ الْهَذَيَانِ

فإن من يدرس حياة كافور ، وكيف توصل إلى حكم مصر ، ويقرأ هذه الأبيات ، يكاد يوقن أن المتنبي يخفى فيها أشد العجب ، من ارتقاء مثل كافور إلى الملك ، واستوائه على عرش مصر . وقد تكون فى الشاعر نزعة قوية إلى الشعر فى جهة خاصة ، فيعرض إليها من المؤثرات ما يخمد نارها ، ويطفىء أنوارها ، ويُطغى عليها سواها من نواحى القول ؛ إلا أن جمراتها المطمورة تحت تراب المؤثرات ، قد ترسل ومضات باهتة فى ظلام الحوادث ، ينفذ على ضوئها المتبصر إلى الوقوع على جديد فى شاعريته ، ما كان ليظهر بالنظر الطائر ، والدرس السريع .

حكم التاريخ على شعر المتنبي :

والمتنبي من أولئك الذين صدق التاريخ ما سجل الشعر لهم من صفات كثيرة . فإن شعره ينبئك أن الحقد الذى كان يأكل صدور أولئك الذين يسامونه فلا يسمون إليه ، قد جر عليه ويلات كثيرة ، وجرّعه غصص الهم . وأن نفسه الطموح وروحه الوثاب ، طوّحا به فى كل قُطر ، وعرّضاه لغول المهالك . وأن معايشته للملوك والأمراء ، طارت بنفسه فوق مستوى مَنْ عاصره من الشعراء ؛ وأن انغماره فى حومة الوغى ، ووقوع الطعان والكفاح والغلاب فى أفق ناظريه هيّأ له دقة الوصف ، وأمدّاه بفيض من المعانى والتخيل ، أقدرَهُ على إخراج صور فنية عالية ، تمتنع على من عداه . وأن تمرّده على عصره ، حدا به إلى التمرّد على شعره ، فأرسله كما يهوى ، لا كما ينبغى . وأنه بشعره بنى الصرح الذى بلغ به أسباب المجد ، وشحذ السيف الذى سقاه كأس المنون . هذه الأمور كلها تتدافع إلى ذهن من يتفحص شعر أبى الطيب ، وتعلق بخاطر من يقرأ تاريخ أبى الطيب ، فقد أدى التاريخ شهادته عليها طبق الشعر ، وأثبت توقيعه فى ذيلها .

فى شعر المتنبي صور مختلفة ، ملائمة لألوان نفسه ، تمثله أحسن تمثيل : فى كبريائه وطموحه ، وتعسفه واضطرابه ، وركوبه رأسه ؛ إلا أن ناحية أخرى من

شعره ، لا نملك القول فى أنها كانت صدى لما يجيش بالنفس ، أو تصويراً لما يلتهب فيها من عاطفة ، ولهذا كانت مزاجا من الصبابة والتصابى ، والرقة والجفوة ، والتعمل والطبع ، تلك هى ناحية المرأة ، أو ناحية التغزل بالمرأة ، وهى ناحية لا نكاد نعثر على شاعر من شعراء العربية أغفلها ، حتى المتصوفين والمتشائمين منهم ؛ فهى من النواحى الجديرة بالنظر فى دراسة الشاعر . ونحن لا نستطيع القول . المتنبى عاش حياته ، لم ينبض فؤاده بخفقات الحب ، ولم تسكن المرأة فى شعاب قلبه ، وهو شاعر مرهف الحس ، مكتمل الانسانية ، عظيم الرجولة . غير أن التاريخ أثبت للمتنبى من الصفات التى لازمته من حداثته إلى أن لقى حتفه ، ما شغل باله ، وامتلك زمام لبه ، فلم ينفذ إلى قلبه سحر المرأة ، ولم تلتهب فيه عواطف الغرام ؛ لأن نزوعه إلى المجد ، وتطلعه إلى الرياسة لم يدع للمرأة سلطانا على قلبه ، ولم يشبّ فيه عواطف الهوى ولوافح الصبابة . هذا إلى أن أبا الطيب كان من ذوى المبادىء ، سنّ لنفسه سياسة خاصة ، وجمع كل جهوده على تحقيقها فعاش يبتغى إليها الوسائل ، ومات ولم يفز منها بطائل ، عاش مشغوفا بالإمارة منهوما بالملك ، طلبه فى البادية فعز فيها طلابه ، وازدهته الخيلاء فى حضرة سيف الدولة فردّه على أعقابه ، وخُيّل إليه أن فى كافور غفلة تتيح له أن ينتزع منه ولاية ، فرأى فى الأستاذ داهية الدواهى ، ثم غادر مصر يجرر أذيال الخيبة ، ويلتمس النجاة فى جنح الظلام ، وتيه الفيافى والقفار ، إلى أن رمت به الأقدار شريداً بين العراق وفارس ، حتى اغتاله الناقمون عليه والموتورون منه .

هذه الحياة الصاخبة الجامحة المفزّعة ، أبت على المتنبى أن يصغى إلى الحب ، وأن يستجيب إلى صوت العاطفة ، فلم يكن الغزل الصميم من الأغراض التى تشغل باله ، أو تحوك فى صدره .

غزل المتنبى بين العاطفة والتقليد :

وما أثر من غزل المتنبى ، إنما قاله محافظة على عمود الشعر ، وإيثاراً لأسلوب القدامى . لأن اقتفاءه أثر أبى تمام ، ومقامه فى البادية ، وتعصبه للعرب ، حبّبَ إليه اتباع سنن الشعراء الأقدمين . ولقد كان معظم حساده من العلماء والشعراء

يودون أن يحيد المتنبى قيد شعرة عن عمود الشعر المأثور، فيهجموا عليه بالنقد والتجريح، ويأخذوه بالزراية والتقبيح. ومن أحق من المتنبى بإحياء سنة العرب فى شعرهم، وهو العربى لحماً ودماً، والبدوى ثقافة ورواية، والمتنبى فى ظل دولة بنى حمدان العربية. لهذا كله كان يصطنع الغزل اتباعا لسنن المتقدمين لا استجابة للعاطفة، ولا تلبية لدواعى النفس. والشعراء - إلا قليلا منهم - جرَوا على هذه السنة فى بدء القصائد بالغزل، حتى التزم الشعر العربى منذ وجد إلى عهد غير بعيد طريقة واحدة. ولا يخالف هذا الرأى ما ألف من شذوذ المتنبى، فان هذا الشذوذ كان فيما يعمد إليه من الغموض والإبهام، أو الخروج على قانون الصرف والإعراب، لكنه كان فى الغالب محافظاً على اتباع النظام المأثور للقصيدة والخضوع إلى أحكام هذا النظام.

تلون غزل المتنبى على حسب ظروف حياته:

على أن هذه الحياة المعقدة الملونة، أثرت فى غزل المتنبى، وصبغته بألوانها، كما صبغت سائر شعره، فغزله فى صباه، ليس كغزله بعد أن اكتمل عقله وتم نضجه، وغزله فى مدح من يحبهم و يرضى عنهم، يختلف عن غزله فى مدح من يزدريهم ويشنؤهم، وإنما سيق إلى مدحهم مدفوعا برغبة الحصول على المال، أو دفع الأذى عن نفسه، فالمتنبى فى غزله، هو المتنبى فى سائر شعره، فيه الغث والسمين، وفيه الذوق السليم، والخاطر السقيم، وفيه المعنى الشريف، والفكر الدقيق، والمنهج الواضح، وغزله فى مدح سيف الدولة الحمدانى، وعضد الدولة البويهى، كان أقل قدرا وأكثر سقطا وسخفا من الغزل الذى قاله فى مدح كافور وأبى العشائر وأبى شجاع فاتك، ومن إليهم من طبقة الأمراء أو القواد الذين كانوا أقرب إلى نفسه، وأدنى إلى مرتبته. فاذا أردنا أن نلتمس العلة لذلك رأيناه فى شبابه كان يتطاول الى ما يجول فى ذهنه من المعانى، فتقصر عن تحديدها قوالب اللفظ، لأن ملكة النظم لم تسلس قيادها له، ومسالك التعبير لم تذلل لقريحته ولسانه، وقد يرفع نفسه إلى ما وراء مقدورها، ويكلف سجيته ماليس

فى طبعها ، من التأنق فى الخطاب ، وتوخى مواضع الإحسان والإعجاب ، فيقع له من السفساف ما لا يتصور أن يصدر مثله من أقل الشعراء .

والمتنبى فى صباه قد ضم ثيابه على الغرور ، وأعجب كل الاعجاب بما يبدو من خاطره ، فلا يسمح أن ينظر فيه بنقد أو تغيير ، فجاء الكثير من شعره مستغلق المعنى ، خفى الغرض ، لا لأنه كان عميق الخيال ، دقيق الفكر ، بل لأنه ضعيف التأليف ، مضطرب التعبير ، ولهذا قال الواحدى : « لو طرح المتنبى شعر صباه من ديوانه لكان أولى » وسأقدم لك بينة من هذا الشعر تدعم ما أرى ، ولن ألجأ إلى ما شاع من شذوذ المتنبى . وما اشتهر من إبهامه على ألسنة الأدباء ، لأستجرك إلى التصديق ، وأبعث فيك النفور منه ، ولكن ها هى ذى أبيات فى صدر قصيدة مدح بها على بن منصور الحاجب ، واستجادها السامعون ، وأجيز عليها بدينار واحد من الممدوح ، لأنه لم يكن من الذين يستطعمون الشعر ، أو يتذوقون حلاوته . والمعنى الذى تدور عليه هذه الأبيات هو (أنه فداء الحسان اللائى رحلن عنه يخطرن فى جلابيب الحرير ، وجعلن وجناتهن الوردية تسلب عقله وقلبه ، فأسرن الشجاع الجرىء الذى كان يهب الناس ، فأصبح نهبا لهؤلاء الحسان . إنهن يحيين بوصالهن ، ويقتلن بهجرهن ، ويظهرن غرائب الدلال ، وقد أردن أن يقلن لى وهن مرتحلات : تفديك نفوسنا ، ولكنهن خفن عين الرقيب ؛ فأشرن إلى ذلك بوضع أيديهن على صدورهن . لقد كنت أخشى على ثغورهن أن تذوب من حر أنفاسى ، فلما ارتحلن عنى . ذبت من الشوق إليهن) هذا موجز قصته فى هذه الأبيات :

بأبى الشموسُ الجانحاتُ غوارباً ... اللابساتُ من الحريرِ جلابيا !

المنهباتُ عقولنا وقلوبنا ... وجناتهنَّ النَّاهباتِ النَّاهبا

النَّاعماتُ ، القاتلاتُ ، المحيياتُ ، المبديات من الدلالِ غرائبا

حاولنَ تفديتى ، وخفنَ مراقباً ... فوضعنَ أيديهنَّ فوقَ تراقبا

وبسمنَ عن برَدٍ خشيتُ أذيبهُ ... من حرِّ أنفاسى ، فكنتُ الذائبا !

وهى خواطر شاب يغريه من المرأة جلبابها ، ووجناتها ونعومتها ، لم يبتكر فيها جديداً ولم يجاوز بها نوازع الشباب ، والافتتان بجسم المرأة واحمرار وجناتها ، تمر منها على أفكار سطحية . لا تَنِدُّ عن أذهان من تعودوا نظم الكلام ، وصبه فى مسابك البحور والقوافى ، ولا تهب منها ريح الخيال الرائع . لا تسمع فيها خفقات قلب محب ، أو عاطفة نفس حساسة . وهى أبيات خمسة فيها سِلع رخيصة لاتروج فى سوق الشعر ، ولا يقبلها ذوقه ، فإن الثقل والابتذال يحثمان منها على صدر القارىء من (جلابيا ، وكنت الذائبا) وإن إبهام المعنى ، وكدّ الذهن فى الوصول إليه ، يذهب بصبره حينما يقرأ :

المنهباتُ عُقُولَنَا وَقُلُوبَنَا وَجَنَاتِهِنَّ النَّاهِبَاتِ النَّاهِبَا

وإن تكرار ، منهبات ، وناهبات ، وناهبا ، فى بيت واحد يبغضُ إليك الشعر وصناعته ، وقراءته وكتابته ، ولولا أن مثل هذه الأبيات تتوشح باسم المتنبى ، ويحيط بها هالة من صيته وجلاله - لما رُزقت بقاء ، ولذهبت كما يذهب الزبد جفاء . ولقد كنا نلتمس المعاذير للمتنبى فى مثل هذا الإسفاف والالتواء والغموض والإبهام ، لو أنه حاول معنى دقيقا ، أو عالج خيالا عميقا ، فاستعصى عليه اللفظ ، ونفرمنه البيان ، ولكن ، أى عذر لمن يُرَدد هذه المعانى التافهة ، ويلقى عليها الغموض بسوء أدائه ، وضعف أسلوبه ؟

تأثير أبى تمام فى غزل المتنبى :

ولقد أساء المتنبى فى شبابه إلى شعره ؛ لاتباعه سنن أبى تمام ، وتوخى طريقته ، وترسم آثاره ، والطبع على غراره . لأن شهرة أبى تمام فى هذا العهد قد طبقت الآفاق ، وملأت سمع الزمان ، ومنزلته بين أهل اللغة والأدب فى هذا العصر ، لايطمح إليها إلا كل بعيد الهمة ، فسيح أفق الأمل ، كالمتنبى . ومن ذا يتعلق بأذيال الشهرة ، ويركب إليها ظهر كل شموس وذلول غير المتنبى ؟ لقد كان أبو تمام يتحذلق فى أسلوب الخطاب ، ويرسل فيه صوت الطبل ؛ خصوصا فى مطالع القصائد .

فى قوافيها قلقا ولا ضعفا ، ولا فتورا ولا نفورا . فعلى هذا نستطيع بحق أن نقول : إن المتنبى يسف ويسف ، ويتخبط فى غزله ويضعف ، إذا حاول الصنعة أو جنح إلى التقليد ، ويسمو ويجيد ، ويقوى ويستقيم ، ويأسر ويبتكر ، إذا أطلق لسجيته العنان ، وجرى وراء خاطره . ومشى فى ركاب طبعه .

ليقل من شاء : إن الحب لم يخامر قلب المتنبى ، وليقل من شاء : إنه كان غير مفتون بالمرأة ؛ بل إنه كان يزدريها ويزنها وزن المتاع الرخيص ، ولكن ليس لأحد أن ينكر أنه فى أحيان كثيرة يصنع من الغزل ما يحملك بعد قراءته ، على أن توقن بأنه الفن والابتكار ، وغاية القدرة على الصقل والإخراج ، حتى لتظن أنه ممزوج بروح العاطفة ، وأن شاعريته سمت به عن جو الصبابة والغرام ، إلى سماء الوحى والإلهام ، وما علينا إذا كان المتنبى أحب أو لم يحب ، ما دمنا نقع فى كثير من غزله على أدق تصوير للعاطفة ، وأرق ما يفيض به شعور المحبين .

وقد تتجاذبه الصنعة المتكلفة والطبع النقى ، فترى له فى بيتين متتاليين حنظلة إلى سكرة ، أو حصاة إلى جوهرة ، على أنه مما يدعو إلى العجب أن يتوج المتنبى كثيرا من غرر قصائده وطرائف غزله بطلاسم ومعميات ، ولعل هذه الظاهرة سرت اليه من تأثره بأبى تمام كما نوهنا : اقرأ البيت الأول من القصيدة التالية واقرأ البيت الثانى منها ، فلن تجد بينهما قرابة أو صلة ، فالأول لغز مقفل لا رابطة بين عروضه وضربه ، ولا قوة فى نسجه وسبكه ؛ على حين ترى البيت الثانى يهتز فرحا ومرحا فى شطره الأول ، ويتماسك رصانة وجزالة فى البيت الثانى ، وبينهما رباط قوى ، من اتصال متين ، ومعناه فى لفظه يرغمك على أن تسمعه ، ومالى أطيل عليك القول فى الشرح والتعليق ، وتلك أبياته التى أعنى :

جَلَلاً كَمَا بِى فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ ... أَغِذَاءَ ذَا الرَّشَإِ الْأَغَنِّ الشِّيحُ ؟

لَعِبَتْ بِمِشْيَتِهِ الشَّمُولُ ، وَغَادَرَتْ ... صَنَمًا مِنَ الْأَصْنَامِ ، لَوْلَا الرُّوحُ !

مَا بَالُهُ ؟ : لَا حَظْتُهُ فَتَضَرَّجَتْ ... وَجَنَاتُهُ ، وَفُؤَادِىَ الْمَجْرُوحُ

مسمعك ، فلن تجد شيئا . وكان أبو تمام رجلا فحلا ، زاخر البحر . لايعظم عليه أن يقيم لك الدنيا ويقعدها بألفاظه ؛ إذا كان ممدوحه لايملأ نفسه ، ولا يدخل فى قلبه ، وهذا أبو المغيث ، قد لطخه أبو تمام بهجائه ، وأقذع فى تجريحه ، ثم عنّ له أن يسترضيه ويمدحه ؛ ليُصلح من نفسه ، ويستل من ضغنه . فدق عليه طبول الألفاظ ، ورعود الأساليب ؛ لأن المعانى لا تصدقه ، والخيال لا يواتيه . ولقد أراد السيد المتنبى أن يعارض أبا تمام فى هذه القصيدة فى مدح محمد بن زريق الطرسوسى فقال :

هَذِى ، بَرَزْتِ لَنَا ، فَهِجْتِ رَسِيسَا ثُمَّ انْثَنَيْتِ ، وَمَا شَفَيْتِ نَسِيسَا
وَجَعَلْتِ حَظِّى مِنْكِ حَظِّى فِى الكَرَى وَتَرَكْتِنِى لِلْفَرْقَدَيْنِ جَلِيسَا
قَطَّعْتِ ذَيَّاكِ الخُمَارَ بِسَكْرَةٍ وَأَدَرْتِ مِنْ خَمْرِ الفِرَاقِ كُئُوسَا
إِنْ كُنْتِ ظَاعِنَةً ـ فَإِنَّ مَدَامِعِى تَكْفِى مَزَادَكُمُ ، وَتُرْوِى العِيسَا
حَاشَا لِمِثْلِكِ أَنْ تَكُونَ بَخِيلَةً وَلِمِثْلِ وَجْهِكِ أَنْ يَكُونَ عَبُوسَا
وَلِمِثْلِ وَصْلِكِ أَنْ يَكُونَ مُمَنَّعاً ولمثل نَيْلِكِ أَنْ يَكُونَ خَسِيسَا
خَوْدٌ جَنَتْ بَيْنِى وَبَيْنَ عَوَاذِلِى حَرْباً ، وَغَادَرَتِ الفُؤَادَ وَطِيسَا
بَيْضَاءُ يَمْنَعُهَا (تَكَلَّمَ) دَلُّهَا تِيهاً ، وَيَمْنَعُهَا الحَيَاءُ تَمِيسَا
لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِى عِنْدَهَا هَانَتْ عَلَىَّ صِفَاتُ جَالِينُوسَا

ما كان أغناك ياأبا الطيب عن التردى فى حفرة التقليد ، لقد أصبحت غرابا وأنت قطاة ، إن لك من حدة الذهن ، وسجية النفس ، وسرعة الخاطر ما يلبسك ثوب الشاعر ، فكيف تسير فى فيافى أبى تمام ، وتسرى فى دجاه ، وهو الذى لقّح الشعر فى زمانه بلقاح الفساد ، وأفشى فيه جرائم الصناعة ، لقد طرت فى جوه فلم ترتفع إلى سمائه ، وإن كنت فى قصيدتك أبين منه شاعرية ، وآنس

وكان مولعا بالتنقيب عن حوشيّ الألفاظ ، والبحث فى زوايا الإغراب ، فيثير منها الصيغ الشاذة ، والتراكيب الجافية ، ثم يتخذ من البديعيات والزينة اللفظية مراهم تلين هذه الجفوة ، وتخفف من وقع هذه الكزازة ، فأراد المتنبى أن يكون كذلك ، حتى يقول الناس : إن أبا تمام بعث من مرقده ، فى أسلاخ المتنبى وأجلاده ، فاشتد طلبه للصنعة اللفظية ؛ اقتداء بأستاذه ، إلا أن المتنبى لم يكن فى سجيته قبول هذا المسلك ، لما كان عنده من بداهة الخاطر ، وحدة البادرة ، فأضرّ به التكلف والتعمل ، وسنعرض عليك صوره غزلية من قصيدتين متحدتين فى الوزن والروىّ ، ترى فيها مقدار ما أساء المتنبى إلى طبعه ، وأزرى بشاعريته ، حينما قسرها على التقليد ، وهبط بها فى مهوى المحاكاة :

قال أبو تمام يمدح أبا المغيث موسى ، بعد هجائه : —

أفَشِيبَ ربعهمُ أراك دريسا ... وقِرَى ضيوفك لوعةً ورسيسا
ولئن حُبِسْتَ على البلى لقداغتدى ... دمعى عليك إلى الممات حبيسا
قِدْماً ، كأن أُمَيْمَ كانوا ساكنا ... لك ، والعمالق الألى ، وجَديسا
وأرى رسومك موحشات بعدما ... قد كنت مألوف المحل أنيسا
وبلاقعاً ، حتى كأن قطينها ... حلفوا يمينا أخلقتك غموسا
أترى الفراق يظن أنى ذاهل ... عنه ، وقد لمستْ يداه لميسا
رُود ، أصابتها النوى من خُرَّدٍ ... كانت بدور دجُنَّةٍ وشموسا
بيض يُدِرْنَ عيونهن إلى الصبا ... فكأنهن بها يدرن كئوسا
وكأنما أهدى شقائقَه إلى ... وجناتهن ضحًى أبو قابوسا
قد أوتيت من كل شىء بهجة ... ودَدًا ، وحسنا فى الصبا مغموسا
لولا حداثتها ، وأنى لا أرى ... عرشا لها ، لظننتها بلقيسا

ماذا تسمع من هذا الشعر ، وماذا ترى ؟ تسمع قعقعة ولا ترى طحنا ، يطرق سمعك جرس « دريسا ، وريسا ، وبلاقعا ، والعمالق الألى ، وجديسا ، وبدور دجنة ، وشموسا » . فتظن أنك تسمع شيئا ، فإذا سكن هذا الطنين حول

كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكِ سَدَّ مَسَامِعِي ... عَنِ الْعَذْلِ، حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا الْعَذْلُ

كَأَنَّ سُهَادَ اللَّيْلِ يَعْشَقُ مُقْلَتِي، ... فَبَيْنَهُمَا فِي كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَصْلُ

أُحِبُّ الَّتِي فِي الْبَدْرِ مِنْهَا مَشَابِهٌ ... وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

ألا ترى أنك حينما تقرأ هذه القطعة ثم تقرأ القطعة السينية السابقة ، تزعم أن المتنبي قد لبس بردين ، وتقمص شخصيتين ، وأنه فى القطعة الأولى من سُرّاق القوافى ، المتطفلين على موائد غيرهم ، والمنتحلين للصبابة والغرام ، وأنه من الذين يقيمون هيكل القصائد من أحجار صماء ، لاحياة فى جسمها ، ولا ماء فى وجهها ؟ هذا إلى فساد المعنى ، واضطراب المبنى ، وغثاثة اللفظ ، وسقم الأداء . وهو فى القطعة الثانية محب تجده صادق الحب ، يصدر عن معين النفس وفيض الخاطر . وينساب منه القول ، انسياب العذب الزلال الصافى على حصباء كالدرر ، فهذى ساحرة بصفائها ، وتلك فاتنة ببياضها . وقد أجرى قصة هذه الأبيات حول اللحاظ الفاتكة ، والأحداق القاتلة ، التى أصابته فأردته ، وامتزجت نصالها بلحمه ودمه ، فاصبح أسيرا لها ، مشغولا بها عن سواها ؛ حتى احتل السقم كل جزء من جسمه ، وأصبح اللحظ شديد السطوة ، قوى الشِّرة ، كأنه الرقيب يقتحم المنزل ، ويهتك الستر على حين غفلة ، أو العدو تثير الريبة حفيظته ، وتبعث تقمته ، وهو إلى هذا العذاب الذى يلقاه من سهام طرفها ، لايسمع فيها لوم عاذل ، أو قول كاشح ، ولكن الأنين الذى ينبعث من أعماق قلبه ، وصميم نفسه ، يهتف بفؤاده وبحبيبته ؛ لأن كليهما ممتزج بالآخر امتزاجا ، لايفصله عذل أو ملام ، فكأنها سيطرت على كل حواسه ، فسدّت عن العذل مسامعه ، وحالف السهد مقلته ، وهو لم يذكر لك منها غصن البان . والردف الثقيل ، والخصر النحيل ، ولم يذق رضا بها ولم تطربه منها وسوسة السوار والخلخال ، إلى غير هذه الأوصاف الجسمية التى تقرؤها لأدعياء الشعر ، كأنهم يصفون دمى الشمع فى حانوت مثال ، ولكنها ألوان النفس ، وخفقات القلب ، ورواية الحب العف البرىء ، ساقها فى لفظ حر وعبارة مصقولة ، هى السحر أو أغرب ، لا ترى

فى قوافيها قلقا ولا ضعفا ، ولا فتورا ولا نفورا . فعلى هذا نستطيع بحق أن نقول : إن المتنبي يسف ويسف ، ويتخبط فى غزله ويضعف ، إذا حاول الصنعة أو جنح إلى التقليد ، ويسمو ويجيد ، ويقوى ويستقيم ، ويأسر ويبتكر ، إذا أطلق لسجيته العنان ، وجرى وراء خاطره . ومشى فى ركاب طبعه .

ليقل من شاء : إن الحب لم يخامر قلب المتنبي ، وليقل من شاء : إنه كان غير مفتون بالمرأة ؛ بل إنه كان يزدريها ويزنها وزن المتاع الرخيص ، ولكن ليس لأحد أن ينكر أنه فى أحيان كثيرة يصنع من الغزل ما يحملك بعد قراءته ، على أن توقن بأنه الفن والابتكار ، وغاية القدرة على الصقل والإخراج ، حتى لتظن أنه ممزوج بروح العاطفة ، وأن شاعريته سمت به عن جو الصبابة والغرام ، إلى سماء الوحى والإلهام ، وما علينا إذا كان المتنبي أحب أو لم يحب ، ما دمنا نقع فى كثير من غزله على أدق تصوير للعاطفة ، وأرق ما يفيض به شعور المحبين .

وقد تتجاذبه الصنعة المتكلفة والطبع النقى ، فترى له فى بيتين متتاليين حنظلة إلى سكرة ، أو حصاة إلى جوهرة ، على أنه مما يدعو إلى العجب أن يتوج المتنبي كثيرا من غرر قصائده وطرائف غزله بطلاسم ومعميات ، ولعل هذه الظاهرة سرت اليه من تأثره بأبى تمام كما نوهنا : اقرأ البيت الأول من القصيدة التالية واقرأ البيت الثانى منها ، فلن تجد بينهما قرابة أو صلة ، فالأول لغز مقفل لا رابطة بين عروضه وضربه ، ولا قوة فى نسجه وسبكه ؛ على حين ترى البيت الثانى يهتز فرحا ومرحا فى شطره الأول ، ويتماسك رصانة وجزالة فى البيت الثانى ، وبينهما رباط قوى ، من اتصال متين ، ومعناه فى لفظه يرغمك على أن تسمعه ، ومالى أطيل عليك القول فى الشرح والتعليق ، وتلك أياته التى أعنى :

جَلَلاً كَمَا بِى فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ ... أَغِذَاءَ ذَا الرَّشَإِ الْأَغَنِّ الشِّيحُ ؟

لَعِبَتْ بِمِشْيَتِهِ الشَّمُولُ ، وَغَادَرَتْ ... صَنَمًا مِنَ الْأَصْنَامِ ، لَوْلَا الرُّوحُ !

مَا بَالُهُ ؟ : لَا حَظْتُهُ فَتَضَرَّجَتْ ... وَجَنَاتُهُ ، وَفُؤَادِىَ الْمَجْرُوحُ

وَرَمَى، وَمَا رَمَتَا يَدَاهُ، فَصَابَنِي ... سَهْمٌ يُعَذِّبُ، وَالسِّهَامُ تُرِيحُ
قَرُبَ الْمَزَارُ وَلاَ مَزَارَ، وَإِنَّمَا ... يَغْدُو الْجَنَانُ، فَنَلْتَقِي، وَيَرُوحُ
وَفَشَتْ سَرَائِرُنَا إِلَيْكَ وَشَفَّنَا ... تَعْرِيضُنَا فَبَدَا لَكَ التَّصْرِيحُ
لَمَّا تَقَطَّعَتِ الحُمُولُ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسِي أَسًى، وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوحُ
وَجَلاَ الوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنًا ... حَسَنُ الْعَزَاءِ - وَقَدْ جُلِينَ - قَبِيحُ
فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ، وَطَرْفٌ شَاخِصٌ ... وَحَشًا يَذُوبُ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ
يَجِدُ الْحَمَامُ، وَلَوْ كَوَجْدِي لاَنْبَرَى ... شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الحَمَامِ يَنُوحُ

إنه فى البيت الأول يريد أن يقول « ليكن تبريح الهوى وما يلقى العاشقون من جهده وأذاه شديداً عنيفا مثل ما ألقى منه ، وإلا فليس فيهم عاشق مثلى . أفتظنون هذا الرشأ الذى أحبه يتغذى كما تتغذى غزلان الصحراء بنبات الشيح ؟ كلا ، إنه يأكل من قلبى ويتغذى بفؤادى حتى أتحلى وأمرضى » فانظر أى مناسبة بين مصراعى هذا البيت ، وأين موضعهما من بداهة أبى الطيب ؟

ولا يفوتنا - قبل أن نغادر غزل المتنبى فى صباه - أن نذكر له قدرته على تصوير مواقف الوداع ، وعبث الشباب ، ولوعة الغرام ، تصويرا دقيقا ، يجمع شتى المعانى فى بيت واحد ، ويطويها تحت كلمات قليلة ، وينتقى لها من الألفاظ الموسيقية ما يلائم طبع الموقف الذى يصوره ، ويصوغها فى مقاطع مرقصة ، ونبرات تهز المشاعر وتنعش النفس ، تقرؤها فكأنك تمر على قصة طويلة ذات فصول وأحداث ، فتؤمن بأن المتنبى فى مثل هذه الأبيات شاعر روائى ، ومصور موسيقى ، يحكى أن المتنبى برح به الحب ، وأذوى عوده الوجد ، حتى انبرى جسمه ، واصفر وجهه ، فلما بصرت به محبوبته على هذه الحال ، أنكرت ما به ، وجزعت لمصابه ، وتساءلت فى غيظ وإشفاق : ترى ، من الجانى المتجرم الذى صيره إلى ما أرى ، وأصابه بما أذهلنى ؟ ثم أرسلت من فؤادها زفرات مستعرة حرقت كبدها جزعا عليه

ورحمة به ، فاجابها المتنبي فى ذلة وانكسار ، وقد أنكر جزعها ، واستشفع بحاله اليها : إن من جنى على السقم والنحول هو من يعجب لحالى ، و يشفق مما بى ، هو أنت يا قاتلى! إن بدع المتنبي وإعجازه يسوق اليك هذه القصة كاملة فى بيت واحد:

قَالَتْ ـ وَقَدْ رَأَتِ اصْفِرَارِى ـ مَنْ بِهِ ؟

وَتَنَهَّدَتْ ، فَأَجَبْتُهَا : الْمُتَنَهِّدُ !

وقد أراد مرة أن يحكى امتناع ظبيته عليه ، ونفورها منه،وأنه إذا ضاق ذرعا بقنصها ففرمنها ، وانتبذ مكانا بعيدا منها ، دنت منه لتخدعه ، وتوقعه فى شركها ؛ فإذا هم أن يدنو منها نفرت هى منه وهربت من بين يديه ، فاذا أراد مداعبتها أجفلت وجفت ، واذا هم أن يقبلها أبت وامتنعت . هذه الصورة العابثة الماجنة الحائرة المستهترة يصورها لك المتنبي فى قوله :

أَنَأَيْتُهُ فَدَنَا ، أَدْنَيْتُهُ فَنَأَى جَمَشْتُهُ فَنَبَا ، قَبَّلْتُهُ فَأَبَى !

أرأيت جرس المقاطع ، وحسن المطابقة والمقابلة ، كيف وقع فى موضعه وحل فى مكانه ؟ وكيف اختار أرق الألفاظ وأسهلها على السمع ، ليصور بها موقف العبث واللهو ، وكيف أنها تطرب وترقص من لايرقص ؟

هات الراسمة وخذ متحابين فى موقف وداع ، فيد إلى يد تقبض كل منهما على الأخرى بحرارة وتحرق ، وعين إلى عين ، تقرأ كل منهما فى الأخرى لوعة البين وتباريح الفراق ، وهات أشعة « إكس » لترى بها كيف تصطلى الأحشاء بنار الغرام،ثم هات منديلك وامسح عن عين كل منهما عبرة تترقرق ، ودمعة تتحدر ، هات كل أولئك ، فلن تبلغ فى دقة تصوير الموقف ما بلغ المتنبي بقوله :

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ ، وَطَرْفٌ شَاخِصٌ وَحَشًا يَذُوبُ ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ

هناك من المعانى ما يدور فى كل خاطر ، ومن الأشباح ما يقع أمام كل ناظر ، ولكن لأبى الطيب افتنان ومهارة ينفثان السحر فى معانيه البدهية ، فيجعلها جديدة طريفة ، شديدة الوقع ، عذبة اللحن فى أذن السامع كقوله :

وَيَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِى وُشِّحَتْ بِالمَبَاسِمِ

أين هذا من غزله فى مدح سيف الدولة حيث يقول :

بِلَادٌ إِذَا زَارَ الحِسَانَ بِغَيْرِهَا حَصَى تُرْبِهَا ثَقَّبْنَهُ لِلْمَخَانِقِ
سَقَتْنِى بِهَا القُطْرُبُّلِىُّ مَلِيحَةٌ عَلَى كَاذِبٍ مِنْ وَعْدِهَا صَادِقِ
سُهَادٌ لِأَجْفَانٍ ، وَشَمْسٌ لِنَاظِرٍ وَسُقْمٌ لِأَبْدَانٍ ، وَمِسْكٌ لِنَاشِقِ
وَأَغْيَدُ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ عَفِيفٍ ، وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقِ

فى أول بيت من القطعة الأولى ، يتغنى بأن ديار من يحبهن عزيزة منيعة ؛ تحميها الرماح الطويلة ، لا التمائم والعوذ ، فهذا معنى شريف فى لفظ ظريف ، وسبك رصين .

وفى البيت الأول من القطعة الثانية ، حيث يمدح سيف الدولة ، يتغنى بأن هذه البلاد إذا حمل حصاها إلى النساء الحسان فى بلد آخر ، جعلنه قلائد ؛ لحسنه ونفاسته ، فأين هذا المعنى من الذى قبله ؟ وأين التعقيد والالتواء والخفاء فى هذا البيت ، من وضوح أبلج مثل غرة الصبح ، وأشهر من شمس النهار فى البيت الذى قبله ؟ وأين الخيال الرائع والأنوثة الفاتنة ، والانسجام العذب الذى يلقاك حينما تقرأ :

حِسَانُ التُّثَنِّى يَنْقُشُ الوَشْىُ مِثْلَهُ إِذَا مِسْنَ فِى أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ
وَيَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَهُ كَأَنَّ التَّرَاقِى وُشِّحَتْ بِالمَبَاسِمِ

ألا ترى أن « التثنى والوشى والدر والتراقى والمباسم » كلمات خلقت للغزل وصيغت من معدن الرقة . فإذا وضعتها إلى جانب ما فى الأبيات الأخرى من « قطربلى وكاذب وناشق وعاقل وفاسق » أيقنت أن المتنبى غير شاعر فيها وأنه يصدر عن غير طبع . وأكثر ما قال فى سيف الدولة من غزل لايخلو كما قلت من الألفاظ البدوية كقوله :

ذِكْرُ الصِّبَا وَمَرَاتِعِ الآرَامِ جَلَبَتْ حِمَامِى قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِى

يزعم - وهو فى صحبة سيف الدولة ؛ ذلك بانه كان يقف بباب سيف الدولة ، عند اتصال المتنبي به ، أفاضل العلماء والأدباء والشعراء ، وكلهم حاقد عليه ، لمكانته من الأمير ، وكلهم ملتمس للهنات والسقطات فى شعره ؛ هذا إلى أن سيف الدولة نفسه كان أديبا شاعرا ، وأن كثيرا من أهل بيته كانوا أدباء وشعراء ، ومنهم من كان يفوق المتنبي فى شعره أحيانا ، ويعرض لشعره بالنقد والتزييف ، كأبى فراس ، فكانت هذه الأمور كلها تحمل المتنبي على كد ذهنه ، وشحذ قريحته ، والمبالغة فى التحرى ، وقسر الألفاظ على ما لا تحتمل من المعانى ، وضغط المعانى تحت ماتكره من الألفاظ ، فتنقلب سجيته صنعة وتكلفا ، ويتورط فيما كان يتوقاه ويدل الناس على عيبه ، ويمهد لهم سبيل نقده . وكان خصوم المتنبي يرغبون فى إحراجه ، فيعمدون إلى الاقتراح عليه أن يمدح سيف الدولة لحادثة تطرأ ، أو أمر يحدث ، فلا يسعفه الزمن ، ولا تنيله القريحة مايريد ، من غزل أو تشبيب ، فيدعو هذا وذاك إلى المديح رأساً ، أو التعرض لذكر الحرب أو الطرد ، أو التعريض بحقد خصومه عليه ، فيعرض مكرها عن الغزل والمديح ، إلى الغرض المقصود . ولقد كان أبو الطيب مفتونا بالبداوة ، شديد الاعتزاز بالعروبة ، وكان سيف الدولة هو الباقى من فلول القوة العربية ، وعليه تعقد الآمال ، وبه يناط الرجاء فى إعادة ما اندثر من مجد قومه ، والتسلط على ما تمزق من ملكهم ، فكان المتنبي يشفى فؤاد سيده بذكر الصحراء وما إليها ، مما يرتبط بقومه ، ويتصل بعهدهم السالف . ليبعث فيه حمية العصبية ، فيذكر الدمن والأطلال ، والركب والآرام ، فلم يوفق المتنبي لارضاء الفن ، لأن المؤثرات التى كانت تحيط به ، وضعته تحت عوامل ترضى الظروف ، وتغضب الشعر ، وتدل على القدرة على نظم الكلام ، وطول البال وسعة الاطلاع على مفردات اللغة ، ولكنها لا تدل على روح شاعر أو طبيعة موهوب ، فأين تشبيبه فى مدح الأمير أبى الحسن بن طغج ، قبل أن يتصل بسيف الدولة ، وقبل أن ينتشر فى الآفاق صيته حيث يقول : ـ

دِيَارُ اللَّوَاتِى دَارُهُنَّ عَزِيزَةٌ ... بِطُولَى القَنَا يُحْفَظْنَ ، لا بالتمائمِ

حِسَانُ التَّثَنِّى ، يَنْقُشُ الوَشْىُ مِثْلَهُ ... إِذَا مِسْنَ فِى أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ

وَرَمَى، وَمَا رَمَتَا يَدَاهُ، فَصَابَنِي ... سَهْمٌ يُعَذِّبُ، وَالسِّهَامُ تُرِيحُ
قَرُبَ الْمَزَارُ وَلاَ مَزَارَ، وَإِنَّمَا ... يَغْدُو الْجَنَانُ، فَنَلْتَقِي، وَيَرُوحُ
وَفَشَتْ سَرَائِرُنَا إِلَيْكَ وَشَفَّنَا ... تَعْرِيضُنَا فَبَدَا لَكَ التَّصْرِيحُ
لَمَّا تَقَطَّعَتِ الحُمُولُ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسِي أَسًى، وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوحُ
وَجَلاَ الوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنًا ... حَسَنُ الْمَزَاءِ - وَقَدْ جُلِينَ - قَبِيحُ
فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ، وَطَرْفٌ شَاخِصٌ ... وَحَشًا يَذُوبُ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ
يَجِدُ الْحَمَامُ، وَلَوْ كَوَجْدِي لاَنْبَرَى ... شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الحَمَامِ يَنُوحُ

إنه فى البيت الأول يريد أن يقول ، ليكن تبريح الهوى و ما يلقى العاشقون من جهده وأذاه شديداً عنيفا مثل ما ألقى منه ، وإلا فليس فيهم عاشق مثلى . أفتظنون هذا الرشأ الذى أحبه يتغذى كما تتغذى غزلان الصحراء بنبات الشيح ؟ كلا ، إنه يأكل من قلبى ويتغذى بفؤادى حتى أنحلنى وأمرضنى ، فانظر أى مناسبة بين مصراعى هذا البيت ، وأين موضعهما من بداهة أبى الطيب ؟

ولا يفوتنا - قبل أن نغادر غزل المتنبى فى صباه - أن نذكر له قدرته على تصوير مواقف الوداع ، وعبث الشباب ، ولوعة الغرام ، تصويرا دقيقا ، يجمع شتى المعانى فى بيت واحد ، و يطويها تحت كلمات قليلة ، وينتقى لها من الألفاظ الموسيقية مايلائم طبع الموقف الذى يصوره ، ويصوغها فى مقاطع مرقصة ، ونبرات تهز المشاعر وتنعش النفس ، تقرؤها فكأنك تمر على قصة طويلة ذات فصول وأحداث ، فتؤمن بان المتنبى فى مثل هذه الأبيات شاعر روائى ، ومصور موسيقى ، يحكى أن المتنبى برح به الحب ، وأذوى عوده الوجد ، حتى انبرى جسمه ، واصفر وجهه ، فلما بصرت به محبوبته على هذه الحال ، أنكرت ما به ، وجزعت لمصابه ، وتساءلت فى غيظ وإشفاق : ترى ، من الجانى المتجرم الذى صيره إلى ما أرى ، وأصابه بما أذهلنى ؟ ثم أرسلت من فؤادها زفرات مستعرة حرّقت كبدها جزعا عليه

دِمَنٌ تَكاثَرَتِ الهُمُومُ عَلَيَّ فِي عَرَصَاتِهَا كَتَكاثُرِ اللُّؤَّامِ
وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَقَفَتْ بِهَا تَبْكِي بِعَيْنَيْ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ

ومما يسترعى النظر ، أن غزله فى مدح ابن العميد كان سخيفا ، فقد كان يعلم أن ابن العميد أديب شاعر ، وكان هذا العلم يخرجه من طبعه ، إلى التكلف الممقوت ، والصناعة الرخيصة .

وكان يمدح عضد الدولة أيضا مكرها متكلفا ؛ لكراهته الفرس .

وإليك قصيدة قالها يمدح سيف الدولة ، وهو فى الكوفة ، بعد عودته من مصر ، وهى قصيدة تفيض رقة وسلاسة وحمية واشتياقا ، لأن البعاد أثر فيه ، والأيام نالت منه ، والغربة هذبت من شموسه وهى :

مَا لَنَا كُلُّنَا جَوٍ يَا رَسُولُ ؟ أَنَا أَهْوَى ، وَقَلْبُكَ المُتْبُولُ !
كُلَّمَا عَادَ مَنْ بَعَثْتُ إِلَيْهَا غَارَ مِنِّى وَزَادَ فِيمَا يَقُولُ
أَفْسَدَتْ بَيْنَنَا الأَمَانَاتِ عَيْنَا هَا وَخَانَتْ قُلُوبَهُنَّ العُقُولُ
تَشْتَكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْ قِ إِلَيْهَا ، وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ
وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ
زَوَّدِينَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكِ مَادَا مَ فَحُسْنُ الوُجُوهِ حَالٌ تَحُولُ

إن ذكرى الماضى وما عانى المتنبى فى غربته ، ذللت من جموحه وأذلت عواطفه ، فصاغ ألحانه فى هذه القصيدة من ذوب القلب ، وخلاصة الشعور ، وصميم النفس .

« وخلاصة القول »

١ — أن شعر المتنبى سجل لتاريخه ، صورة لنفسه ، إلا غزله ؛ فإنه كان ألوانا على حسب الظروف والأحوال ، ولم يؤثر أنه وقع فى شرك الغرام أو لبى داعى الصبابة .

٢ -- كان المتنبى فى صباه يقلد غزل أبى تمام فى أحيان كثيرة ، فيتكلف و يسخف ، فاذا ما سار وراء طبعه رأيته يرق و يلطف .

٣ — للمتنبى فى صباه قدرة على تصوير الوداع ولوعة الغرام وعبث الشباب تصويرا دقيقا لم يسبق إليه ، وكان يعتصم بالموسيقى والفن إذا لم يسعفه المعنى الدقيق و الخيال العميق .

٤ — كانت المنافسة الشديدة بينه وبين الشعراء فى بلاط سيف الدولة تحمله على الصنعة والتكلف فيقع فى التعقيد .

٥ — إن العطاء الجزل ، وخلو الجوله فى مصر ، جعل غزله فى كافور من حر القول ، وخير القريض ، فلما رحل إلى خراسان أعاده الخصوم من الشعراء إلى التكلف .

وكنت أود لو أجد الوقت والذهن المستريح ، لأكتب فى غزل المتنبى خيرا من ذلك ، ولكنه جهد المقل ، وبضاعة المكدود .

حسن علوان